نماذج من الخلفاء

- الأمين «١٩٣-١٩٨هـ/ ٨٠٩-٨١٣م» :

تمت البيعة للأمين بعد وفاة أبيه الرشيد طبقاً للعهد الذي عهد به الرشيد إلى أبنائه الثلاثة. وكان الرشيد قد جعل ولاية عهده للأمين فالمأمون فالقاسم.

لكن الأمين ما كاد يتولّى الخلافة حتّى تَنكر لوصية أبيه فخلع أخويه المأمون والقاسم، وبايع لابنه موسى بالخلافه من بعده.

وكانت تلك المؤامرة التي دَبّرَها الأمين ووزيره سبباً في وضع النهاية المأساوية لخلافته؛ فقد زحفت جيوش المأمون من خراسان إلى بغداد، وحاصرت أسوارها ودَقتْ أبوابها، فانفض أتباعُ الأمين عنه، وحاول الأمين أن يستسلم، لكن نفراً من المهاجرين قتلوه. وانتهى بذلك حكم الأمين.

وخلال حكم الأمين حاول علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية وشهرته (السفياني) أن يُعيدَ مجد بني أمية في الشام، وتغلب على عامل الأمين في دمشق، واحتل المدينة ومدّ نفوذَه إلى ما حولها من البلاد، لكن محاولته فشلت آخر الأمر بسبب نزاعات داخلية بين رجاله.

كان الأمين -كما يحكي عنه المؤرخون- كثير اللهو واللعب، منقطعاً إلى ذلك، مشتغلاً به عن تدبير مملكته، وبعث إلى جميع البلدان يطلب المُلهين

ويضمهم إلى حاشيته، واحتجب عن إخوته وأهل بيته، وكان ينغمس في المرح والخلاعة إلى قمته، وظلّ سادرا في ضلاله ومجونه حتّى الساعة التي كان فيها عرشه يهتزُّ من تحته، والشدّةُ تحيط به من كل جانب.

- الرشيد: «١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م» :

هو هارون الرشيد شقيق الهادي وأمهما الخيزران، وأبوهما المهدي.

وقد اكتملت في عهد الرشيد للدولة ألوان من العظمة والقُوَّة والمجد العلمي فاحترمتها الدول المجاورة وكان الاستقرار طابع الدولة، والعظمةُ طابع الخليفة.

وكان الرشيد من أفاضل الخلفاء، وكان فصيحاً وعالماً وكريماً، وكان يحجُّ سنةً ويغزو سَنَةً طيلة خلافته، عدا سنوات قليلة. وكان يصلي في كُلِّ يَوْم مائة ركعة، وَحَجّ ماشياً، وكان يتشبه في أفعاله بَجدِّه المنصور.

يَقول ابن طباطبا في كتابه (الفخري) عن دولة الرشيد:

كانت دولة الرشيد من أحسن الدُّول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخَيْراً، وأوسعها رقعة، فقد جَبَى الرشيدُ معظم الدنيا وكانَ أحدُ عُمّاله صاحبَ مصر، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء ما اجتمع على باب الرشيد. وكان يَصلُ كُلَّ واحد منهم أجْزَلَ صلة ويرفَعُهُ إلى أعلى دَرَجَة . . وكان أديباً شاعراً، راويةً للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق، مهيباً عنْدَ الخاصَّة والعامّة. والرشيد هو الذي أسس (بيت الحكمة) الذي كان المنار للثقافة والفكر في

العالم، والذي انبعث منه الشعلةُ التي أضاءت الطريق للنهضة الأوربية فيما بعد.

وفي عهده وصلت بغداد إلى قمة مجدها، ومنتهى فخارها وامتدت الأبنية في كل جانب منها امتداداً عظيماً حتّى صارت بغداد كأنها مُدُنٌ متلاصقة تبلغ الأربعين، وبلغ سكانها نحو مليون نسمة، وكانت مركزاً تجاريا عظيماً وسوقاً رائجة تنهال عليها البضائع والأموال من كل صوب.

وفي عهد الرشيد ظهرت دولة الأدارسة ببلاد المغرب، ولكي يقف الرشيد في وجه تلك الدولة فإنه أقطع إبراهيم بن الأغلب منطقة تونس، وكان ذلك بداية قيام دولة الأغالبة.

ولقد آثر الرشيد ابنه محمداً الأمين بولاية العهد رغم أنه كان أصغر سنا من أخيه المأمون إرضاء لزوجته زُبَيْدَة أم الأمين؛ فقد كان لها عنده حَظْوَةٌ خاصة.

وفي عهد الرشيد كانت نكبة البرامكة، فأمر بقتل جعفر بن يحيى وَحُبسَ يحيى في منزله، وحُبس الفضل بن يحيى في بعض منازل الرشيد، وأخذ ما لديهم من مال وضياع . . ومَثّل الرشيد بجثة جعفر بن يحيى . . وكان وراء تلك النكبة دسائس وزيره الفضل بن الربيع. لكن ابن خلدون يرى أن نكبة البرامكة كانت بسبب استبدادهم بشؤون الدولة، بينما يروي ابن خلكان أنَّ سبب النكبة هو طول أيامهم مع خلفاء الدولة العباسية منذ بدئها حتى عهد الرشيد.

- عبد الرحمن الداخل «١٣٨ - ١٧٢هـ/ ٧٦٠ - ٧٨٨م»:

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك. يرجع نسبه إلى مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وجدهُ هشام بن عبد الملك، تاسع خلفاء الدولة الأموية (١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٣ - ٧٤٢م).

هاجر إلى الشمال الإفريقي عقب إعلان الخلافة العباسية عام ١٣٢هـ، في الوقت الذي كان فيه بنو العباس يستأصلون الأمويين. وقد وجد عبد الرحمن في الشمال الإفريقي المؤازرة من أنصار الأمويين هناك.

وأدرك عبد الرحمن أن فرصته لتحقيق طموحاته السياسية توجد في الأندلس. كان قد مضى على وجود المسلمين بالأندلس إذ ذاك قرابة الخمسين عاماً، ومع ذلك كان هناك خلاف لا ينقطع بين المسلمين حول من يتولى السلطة والإمارة في الأندلس. وكان الفريقان المتنازعان ينقسمان إلى يمنيين ومُضَرِيِّين، ولقد حُسِمَ الخلافُ بينهما باتفاق على أن تكون الإمارة عاماً للمضريين وعاماً لليَمَنِيِّين . . لكن يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهريّ آخر وال أموي -وكان من المضريين- أراد أن يستمر في السلطة، فحارب اليمنيين وقتل منهم أعداداً كبيرة.

كان عبد الرحمن الداخل قد وصل إلى الأندلس عام ١٣٠هـ/ ٧٤٧م، وانحاز إلى جانب اليمنيين في ذلك الصراع، فجمع حوله كُلَّ من كان من بني أمية بها، وانضم إليهم الساخطون على يوسف الفهري، فتجمع بذلك جيش كبير لعبد الرحمن . . وتقابل عبد الرحمن والفهري في

موقعة (المصارة) عام ١٣٨هـ/ ٧٦١م، وانتهى الأمر بهزيمة الفهري، ودخل عبد الرحمن العاصمة (قرطبة) . . وانتصر بعد ذلك على حملة بعث بها العباسيون للقضاء عليه عام ١٤٦هـ، وأصبح الحاكم الذي لا يُنَازعُ في الأندلس.

وأقام عبد الرحمن الخلافة الأموية في الأندلس، وتوارث الحُكْمَ فيها أبناؤه، وظلّت هذه الخلافَةُ قائمةً لمدة ثلاثة قرون تقريباً من عام ١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٦٠-١٠٣١م، وكانت قرطبة عاصمةَ تلك الخلافة.

أهم أعماله:

شغلت الحروب المتتالية وقت عبد الرحمن ،واستنفدت جهده، ولكنه مع ذلك أسهم إسهاماً كبيراً في خدمة الحضارة والثقافة؛ فقد جمل عبد الرحمن مدينة قرطبة، وأحاطها بسور ضخم، وحفر قناة تمدها بالماء العذب، وشيّدَ بها المباني الضخمة والحمامات والفنادق، وأنشأ البساتين العديدة على ضفَّة الوادي الكبير، وبنى قصراً كبيراً أسماه (الرصافة).

وأنشأ عبد الرحمن جامعاً عظيماً بمدينة قرطبة لا يزال حتى الآن ينطق بالعظمة والجلال، وقد أنفق عليه نفقات كثيرة.

اهتم عبد الرحمن بشئون الزراعة فشق الترع، وأنشأ الطرق، كما اهتم بالشئون التعليمية، فبنى المدارس في عواصم الأندلس، وشجع العلماء والطلاب، وجذبت قرطبة الكثير من طلاب العلوم من أوربا ومصر والشام والعراق.

ويروى أن أبا جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٨٥٣م)، أطلَق عليه اسم (صقر قريش) وقال: «عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجميا مفرداً، فَمَصَّرَ الأمصار وَجَنَّدَ الأجنادَ، ودَوَّنَ الدواوين، وأقام مُلْكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدَّة شكيمته».

- عبد الرحمن الناصر «٣٠٠هـ-٣٦٠هـ/ ٩١٢-٩٧٠م»:

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، وقد عرف باسم عبد الرحمن الناصر أو عبد الرحمن الثالث؛ فقد سبقه إلى هذا الاسم عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) الحاكم الأموي الأول، مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، كما سبقه عبدالرحمن بن الحاكم، وهو عبد الرحمن الثاني أو الأوسط (تولى الحكم عام ٢٠٦هـ/ ٨٢١م).

وعبد الرحمن الناصر عهدَ جدّه إليه بالحكم في الأندلس ليتولى هذه المسؤولية بعده دون أبيه الذي قتل قبل نهاية الجدّ، ومن ثَمَّ آلت مسؤوليات الحكم إليه في الفترة من ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م حتى ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م.

وعبد الرحمن الناصر بَطَلٌ من أبطال التاريخ الإسلامي بالأندلس تَوَلّى مسؤولية الحكم في ظروف بالغة الصعوبة. وقد وَصَفَ المقري في الجزء الأول من كتابه «نفح الطيب» حال الأندلس عند تولية عبد الرحمن، فقال:

«وكانت الأندلس مضطربة بالمخالفين، مضطربة بنيران المتغلبين، فأطفأ عبد الرحمن تلك النيران، واستنزل أهل العصيان، وقد خاض غمار

حروب طويلة ضد هؤلاء، وضد اللصوص والمارقين، وأخضع هؤلاء وأولئك. كما هاجم المسيحيين فَأذَلَّهُمْ، وأعادهم إلى معاقلهم، فسَلَّمَ له البربرُ والعربُ، وخضع له الثُوارُ في كُلِّ الجهات».

وقد خضعت لعبد الرحمن الناصر أكثر الولايات في الأندلس، والتفَّ حَوْلَهُ أكثر الحكام.

وعبد الرحمن الناصر هو أول من حمل لقب خليفة من الحُكَّام الأمويين في الأندلس. ولقد عاب على من سبقه من الحكام الأمويين هناك عدم تمسكهم بهذا اللقب. وقد أصدر منشوراً في عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، جاء فيه: «وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروجُ الكتب عنّا وورودُها إلينا بذلك؛ إذ كلٌّ مَدْعُوٌّ بهذا الاسم مُنْتَحلٌ له ودخيلٌ فيه، مُتَّسِم بما لا يستحقه، وكان هذا اللقبُ حقّا واسماً ثابتاً أسقطناه».

ولقد أصبح عبد الرحمن الناصر سيِّدَ الأندلس كُلِّها، فالأمراءُ يدينون له بالطاعة التامّة، والممالك المسيحية خَرَّت أمامه مهزومةً، أو عقدت معه صلحاً بشروطه. وكانت هذه الممالك تنظر له نظرتها إلى السيِّد الأعلى، بل كانت تحتكم إليه فيما يَدبُ بينها من خلافات.

ويقول ابن خلدون عن عبد الرحمن الناصر: «إنه أوطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنج ما لم يطأه العسكر في أيام سلفه، ومدّت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا إليه رسلهم وهداياهم من رومة ومن القسطنطينية على سبيل المهادنة والسلم..».

وكان لعبد الرحمن الناصر أثر فريد في خدمة الحضارة الإسلامية بالأندلس.

- المأمون «١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م» :

تولى المأمون الخلافة بعد صراع دموي مع أخيه الأمين، عندما غدر الأمين بوصية أبيه بأن تكون الخلافة للمأمون من بعده. وكان المأمون- قبل انتصاره على الأمين وتوليه أمور الخلافة- قد عيَّنهُ أبوه هارون الرشيد والياً على خراسان وما يتصل بها حتّى همدان.

وقد تسلَّمَ المأمونُ تركةً مُثْقَلةً مملوءة بالمتاعب والأحداث بعد مقتل أخيه الأمين؛ فقد كان عليه أن يخضع العديد من الثورات التي قامت ضد الدولة إبّان الفتنة التي أثارها أخوه الأمين. وكان ضمن تلك الثورات الثورة التي قام بها بعض المصريين، وقد شهدوا الخلافات التي وقعت بمصر بين عرب الشمال وعرب الجنوب. ووَجَّه المأمون عبد الله بن طاهر للقضاء على هذه الثورة، ثم اضطر المأمون أن يذهب بنفسه إلى مصر لإصلاح الأحوال وإعادة الأمر إلى نصابه.

وعمل المأمون على نقل الخلافة من ولد بني العباس إلى ولد عَلِيّ بن أبي طالب، وأمر بخلع السواد شعار العباسيين ولبس الخُضْرة شعار العلويين . . لكنه أرغم على الرجوع عن محاولته هذه، وعاد لشعار بني العباس.

وفي عهد المأمون قامت الدولة الطاهرية في خراسان فتمّ إعلان طاهر بن الحسين أميراً لخراسان عام ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م، واستمرّتْ هذه الدولة أربعة

وخمسين عاماً حتى عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م، وكذلك قامت ببلاد اليمن الدولة الزياديَّةُ عندما أعلن تعيين محمد بن إبراهيم الزيادي (من ولد زياد بن أبي سفيان) أميراً لبلاد اليمن وتهامة، وكان ذلك عام ٢٠٣هـ/ ٨١٨م، وذهب محمد بن إبراهيم إلى اليمن وفتح تهامة، واختط مدينة زَبيد ومات عام ٢٤٥هـ، وتوارث أولاده الملك من بعده، فأصبحت لهم اليمن دولة شبه مستقلة حتى عام ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م.

وكانت دولتا الأدارسة في المغرب والأغالبة في تونس قد قامتا قبل ذلك في عهد الرشيد.

كان المأمون من ألمع الخلفاء العباسيين ولولا حكمته وكفاءته لتعرضت الدولة الإسلامية لخطر الزوال والانحلال، وكان محبا للعلم والعلماء، وجمع في بيت الحكمة كنوز العلوم الأجنبية، وتوفي وهو غازٍ بطرسوس عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م.

- المعتصم «٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م»:

ابن هارون الرشيد، عهد إليه المأمون بولاية العهد بعد أن خَبَرَه والياً على الشام ومصر، وتولّى الخلافة عقب وفاة أخيه المأمون عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م، وقد فَضَّلَهُ على ابنه العباس لما عهد فيه من الكفاءة والشجاعة، ويُعدُّ عصر المعتصم امتداداً لعصر المأمون، وهو الذي أدّب الروم وثأر منهم.

وقد اضطر المعتصم أن يعتمد على عنصر جديد في حروبه الطويلة. وكان هذا العنصر هم الترك والديلم الذين استقدمهم المعتصم من بلاد ما

وراء النهر وجعل منهم حرسه الخاص في أول الأمر، ثم أدخلهم في جيشه المحارب، فنالوا تقدير الخليفة . وقد أوقع المعتصم الدولة الإسلامية بذلك في شر مرير تحت رحمة هذه العناصر الجديدة، بعد وفاته .

وكان اعتماد المعتصم على الترك سبباً في قيام مؤامرة لخلعه وتعيين العباس ابن أخيه المأمون في الخلافة بدلاً منه . لكن المؤامرة لم تنجح .

وتوفي المعتصم عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م، بعد أن عهد بالخلافة لابنه (الواثق) .

- الواثق «٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م» :

تولّى الخلافة عام ٢٢٧هـ، بعد موت والده الخليفة المعتصم ونشأ مقتدياً بعَمِّه المأمون في صفاته واتجاهاته، وكان الواثق من أفاضل خلفاء بني العباس .

لم يختر الواثق أحداً لولاية عهده خلال حياته . وكان الترك قد وصلوا في الدولة إلى سطوة ونفوذ، حتّى إن الواثق خلع على القائد التركي (أشناس) لقب السلطان، فنال بذلك مكانة تتعدّى مهام واجباته العسكرية . . وتُوُفِّيَ الواثق في سن مبكرة، فقام القائد التركي وصيف الذي خلف أشناس بتعيين محمد بن الواثق خليفة على المسلمين وكان لا يزال صبيا، ثم عاد وصيف وعزل محمدا وَعين بدلاً منه عَمَّه جعفرا الذي لُقِّب بـ المتوكل على الله . وانتهى الأمر إلى ثورة الأتراك ضد جعفر فقتلوه، وأصبح الأمر بأيديهم . . وبدأ بذلك عصر ضعف الخلافة .